

الزهد و بواعثه عند أبي العتاهية و أبي إسحاق الألبيري

الطالبة : أميرة بريهوم

جامعة أم البواقي

الملخص :

إن موضوع شعر الزهد عند أبي العتاهية و أبي إسحاق الألبيري لم يستأثر بدراسة مستقلة و ما كتب عنه لا يتجاوز فصولا متناثرة في بعض الكتب أو إشارات مبعثرة هنا و هناك. و من هنا جاءت هذه الدراسة لسد ثغرة في ميدان الدراسات العباسية و الأندلسية خاصة شعر الزهد الذي يمثل إتجاها بارزا فيها لما له من دور كبير في التعبير عن حياتهم و مشاعرهم الدينية، باعتباره تصفية للقلب و تنقية للروح من أدران الشهوة و الهوى. فهو نتاج طبيعي لما مر به الإنسان العباسي و الأندلسي من ظروف سياسية و اجتماعية و ثقافية و نفسية .

فجاءت هذه الدراسة لتجيب عن تساؤل يدور حول ازدهار مثل هذه الظاهرة في بلدين عرف عن أهلهما الميل الشديد للدنيا، معرجة على مفهوم الزهد و تطوره حتى نضجه لفن مستقل بذاته.

RESUME:

Le sujet de la poésie de l'ascétisme à Abou al-Atahya et Abu Ishaq al-Albiri n'a pas fait l'objet d'une étude indépendante et ce qui a été écrit ne dépasse pas les chapitres dispersés dans certains livres ou références dispersés ici et là. Cette étude est venue combler une lacune dans le domaine des études abbassides et andalouses, ce qui est une tendance importante car elle a un grand rôle dans l'expression de leurs vies et des sentiments religieux comme une liquidation du cœur et la purification de l'esprit de passion et passion. C'est un produit naturel de ce qui est passé par le peuple abbasside et andalou de conditions politiques, sociales, culturelles et psychologiques.

Cette étude est venue répondre à la question sur la prospérité d'un tel phénomène dans deux pays connus pour leurs parents l'extrême tendance du monde, et le concept d'ascèse et de développement jusqu'à ce que la maturité de l'art soit indépendante de lui-même.

توطئة :

جاء الإسلام فبشر بقيم إنسانية جديدة عما عرف في الجاهلية، من توحيد، وعبادة ورجوع إلى الله، ومجاهدة النفس عن عرض الدنيا وزخرفها ونزوع إلى الفضائل التي ترتفع بكرامة الإنسان لكن تغير ظروف المجتمع الإسلامي وأحواله أدت إلى ابتعاد بعض المسلمين عن الاعتدال والاستقامة، وتكالبهم على شهوات الحياة وملذاتها، فاستدعى ذلك ظهور نزعة روحية مقابلة تحث على الزهد في الحياة الدنيا طمعا في نعيم الحياة الآخرة.

الزهد اشتقاقه و معناه:

تدور مادة الزهد في اللغة حول الإعراض عن الدنيا، فلقد ارتبط معناها في المعاجم العربية بمعناه الديني فقد ذكر الجوهري أنّ الزهد خلاف الرغبة في الشيء، ومعنى يتزهد هو يتعبد¹.

ولا يقال الزهد إلا في الدين خاصة، فيقال فلان يتزهد أي يتعبد فالزهد بمعناه اللغوي الخاص له مدلول ديني بمعنى عدم الرغبة في الدنيا وعدم الحرص عليها.²

المتمعن في المعاني المعجمية للزهد يجد أنها لا تخرج عن كونه ضد الرغبة، ويقابل الرغبة الإعراض أي أنّ الزهد في اللغة هو الإعراض عن الدنيا وبغضها وعدم الحرص عليها، والزاهد في الدنيا هو التارك لها ولما فيها من ملذات وشهوات.

ولم يرد لفظ الزهد في القرآن الكريم سوى مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَشَرُّهُ بِتَمَنِّ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾³، لكن ورود لفظة الزهد في هاته الآية الكريمة لا علاقة له بالمفهوم التعبدي للزهد، فالمعنى هنا يشير إلى أنهم كانوا من الراغبين عنه فلذلك باعوه بثمن بخس.

وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم المعنى الحقيقي للزهد حين قال: «الزهد في الدين ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة أنّ تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك، وأنّ تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بما أرغب منك فيها لو أنّها أبقيت لك»⁴.

كما جعله عليه الصلاة والسلام سبب لمحبة الله لعبده في قوله: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»⁵.

ولقد تناول العديد من العلماء المسلمين شرح مفهومه وتوضيحه، والملاحظ أنّ معناه الإصطلاحي لا يقتصر على ذلك المعنى البسيط الذي تشير إليه معاجم اللغة، وإيّما «هو مفهوم معقد جداً إلى الدرجة التي لا تمكن كثيراً من الباحثين من القول فيه بقول فصل في مسماه، ولا في معناه، ولا في شأنه وتطوره، ولا ماهيته وأبعاده، فكثرت في ذلك الأقوال، وتعددت متقاربة أحياناً، ومتباعدة أحياناً أخرى»⁶.

لكن معظم المفاهيم المتعلقة بالزهد ترتبط بخلو القلب من حب الدنيا وعدم التعلق بوجودها فيها، أو الرغبة في مفقود منها والكف عن المعصية، وترك ما يشغل عن الله.

عرفه الجرجاني: «بأنّه ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل أنّ يخلو قلبك مما خلّت منه يدك»⁷.

ومن هنا فالزاهد من ترك الدنيا وأعرض فيها وإن أقبلت عليه، وانصرف عن ملذاتها وإنّ كانت بين يديه، فلا يفرح بما أتاه منها ولا يحزن على ما فاته، حيث سئل أبو موسى الديلمي: «ما الزهد في الدنيا؟ قال: لا تيأس على ما فاتك منها، ولا تفرح بما أتاك منها»⁸.

فالزاهد الذي إنّ أصاب الدنيا لم يفرح، وإنّ أصابته الدنيا لم يحزن، يضحك أمام الملا و يبكي في الخلا، راغب عن الدنيا وملذاتها، عظيمة الآخرة في عينه، مقبل عليها مستعد لها بالصلح من الأعمال.

وهناك من يعتبر أنّ الزهد هو ترك الشبهات خوفاً من الحرام، وهذا لا يعد من التعريفات، إذ هو من أنواع الزهد التي ذكرها إبراهيم بن أدهم في قوله: «الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة، فالزهد الفرض الزهد في الحرام، والزهد الفضل الزهد في الحلال، والزهد السلامة الزهد في الشبهات»⁹.

فالزاهد من يتقي مواطن الشبهات خوفاً من الزلل، والوقوع في الحرام، والإمام ابن حنبل في حديثه عن الزهد جعله على ثلاثة أوجه: الأول ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، والثالث ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين، وجعله عدم الفرح بإقبال الدنيا ولا الحزن على إدبارها¹⁰.

رغم كثرة التعريفات للزهد، يعد تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية أجمع تعريف له حيث قال: «الزهد المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة»¹¹.

ويعد جامعاً لأنه جمع بين الإعراض عن الدنيا، والحرص على الآخرة، وبين ترك ما في الدنيا من ملذات ومتع فانية، والإقبال على الآخرة بكل عمل صالح ينفع الإنسان يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المراحل و العوامل التي ساعدت على نمو الزهد عند أبي العتاهية و أبي إسحاق الألبيري:

إنّ المفهوم الديني للزهد يقودنا إلى أنّ هذه الظاهرة كانت موجودة منذ الجاهلية، أيّ قبل الإسلام، فرغم أنّ حياة العرب في جاهليتهم حياة وثنية مادية، يطلقون فيها العنان لشهواتهم وغرائزهم، إلّا أنّه هناك زهد أو نوع من التنسك¹². فالرهبان الذين عرفوا في الجاهلية هم أقرب إلى مفهوم الزهاد في الإسلام، وكذلك وجود الأديرة والانقطاع للعبادة فيها كان معروفاً منذ الجاهلية. فنزعة الزهد قديمة وحدثت في الأديان السماوية وغير السماوية فهي نزعة فطرية لا ترتبط بدين ولا بأمة خاصة، كقول ورقة بن نوفل:¹³

قد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير فلا يغركم أحد
لا تعبدن لها غير خالقكم	فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به	وقبل قد سبح الجودي والحمد
مسخر كل ما تحت السماء له	لا ينبغي أن يناوي ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويودي المال والولد

ورقة بن نوفل من الذين اعتزلوا عبادة الأوثان في الجاهلية، وامتنعوا عن أكل ذبائح الأوثان وهو الذي بشر السيدة خديجة ابنة عمه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعد خير دليل على وجود ظاهرة الزهد في العصر الجاهلي، لكنها تجسدت فقط في بعض أقوال حكمائهم من الشيوخ، وترددت على ألسنة بعض شعرائهم في ثنايا قصائدهم، ولم يكتسب هذا اللون المقومات والخصائص التي تجعل منه فناً مستقلاً لتمييزه بالسطحية في تلك الفترة وعدم التعمق في الفكرة.

وبعد مجيء الإسلام الذي بشر بقيم إنسانية جديدة من توحيد وعبادة ورجوع إلى الله ومجاهدة النفس عن عوض الدنيا وزخرفها ونزوع إلى الفضائل التي ترتفع بكرامة الإنسان تعمق معنى الزهد في نفوس الناس فكثير منهم انصرفوا عن متاع الحياة الدنيا إلى عباد صالحين.

وإن كان الزهد في عصر الإسلام استمد معانيه من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم، فإنه وبعد تطور المجتمع الإسلامي والظروف التي جددت على المسلمين وقتئذٍ من فتن وحروب واتساع رقعة الفروق الطبيعية بين أفراد المجتمع وأحداث جعلت البعض يفضل الاعتكاف في بيته والانعزال واللجوء إلى الزهد من الأحداث الراهنة.

ولقد زادت مكانة هذا الشعر في العصر العباسي، إذ أصبح له شعراء منقطعون للقول فيه وهذا لم يكن موجود فيما سبق من العصور، وإن كان شعر الزهد قبل العصر العباسي فن يعرج عليه شعراء غير متخصصين فقد أصبح شعر الزهد في هذا العصر له شعراء لا يتناولون غيره من الفنون الشعرية ولا يشغلون أنفسهم بغيره من الموضوعات، فركزوا على الدعوة إلى ضرورة ترك الدنيا ودم الإقبال عليها والإكتفاء منها بما يسد الرمق والانقطاع إلى الله والتوكل عليه والثقة بما عنده والمجاهدة في سبيل مرضاته.

العصر العباسي جمع بين العديد من المتناقضات، فنجد في جانب منه ازدياد موجة المحون واللهم التي انغمس بها كثير من الناس بقدر ما في جانب آخر من اتجاه منهم إلى الله لينجيهم من هم الدنيا وعذاب الآخرة فقد «أصبحت الحضارة العباسية مسجد وحانة، وقارئاً وزامراً ومجتهداً يرقب الفجر ومصطحباً في الحدائق، وساهراً في تمجد وساهراً في طرب...»¹⁴ فأتجه الشعراء إلى وعظ الناس، وتحذيرهم من الاعتزاز بالدنيا الزائلة وحثهم على التزود للأخرة.

لقد ظهر في المجتمع الإسلامي في العصر العباسي طائفة من النزاعات الاجتماعية التي انحرفت عن المثل العليا السامية التي نادى بها الإسلام، وتحلى بها المسلمون في الدور الأول من تاريخ دولتهم، فشاع الفسق والفساد الأخلاقي واللهم والمجون، ومالوا إلى الحياة المادية والملاذ الدنياوية، فكان الزهد صدق الفسق والفجور، فرب حياة ماجنة فاسدة في ثناياها منابت الخير

وعناصر الصلاح ومظاهر التقوى والورع، فالأمر رد فعل كما يقولون. إذ «تعد نزعة الزهد فعل طبيعي للنزعات السابقة المنحرفة، وما ترتب عليها من اندفاع طائفة كبيرة من الناس ليغمروا أنفسهم في تياراتها الصاخبة، فظهرت طائفة أخرى أنكروا عليهم هذه الحياة المادية المرتبطة بالأرض ارتباطاً رخيصاً، فمضوا يقفون في وجه تياراتها وقيمون السدود في طريقها، ليقللوا من شدة اندفاعها. وراحوا يصبون فيها ماء بارداً ليخففوا من درجة حرارتها التي كانت تجتذب الشباب إليها، كما تجتذب النار الأفاعي، فأتجهوا إلى الزهد والتكشف وأداروا ظهورهم للحياة ومتعبها، ومضوا يدعون الناس إلى عالم روحاني ويذكروهم بأن هذه الحياة التي جرفتهم في تياراتها المادية حياة فانية، يقف الموت على بابها بالمرصاد وأن وراءها حياة باقية خالدة يحاسب فيها المرء على ما قدمت يده في حياة الدنيا وراحوا يعزفون لهم على أوتارهم السود ألحان الموت والغناء، لعل تذكيرهم بإنطفاء جذور الحياة من أجسادهم حين تمتد إليها يد الموت الباردة يحدث تأثير في نفوسهم التي طال انغماسها في هذه التيارات الحارة الصاخبة».¹⁵

فظهر هاتين الطائفتين المتناقضتين في المجتمع لا يعد أمر غريباً، بل لعله شيء طبيعي في ظل الانقلابات الاجتماعية والاضطرابات السياسية التي جعلتهم يفقدون الطمأنينة في الحياة، ويرون فيها شيئاً لا استقرار له ولا ثبات خاصة في ظل تلك الحياة السياسية المضطربة التي عاشها المجتمع الإسلامي عقب الانقلاب العباسي فشهدوا بأعينهم رؤوساً تتطاير، وأشلاء تتناثر وأرواحاً تزهق، ودماء تسيل من أجل كرسي الحكم الذي لا يدوم لحي هذه الصورة القائمة السوداء انطبعت في نفوسهم، وكذا صورة المصير الحتمي للإنسان - الموت - الذي شغلهم فترة حياتهم.¹⁶ كل هذه الظروف أدت إلى اقتناعهم بأن نعيم الدنيا زائل فحرموها على أنفسهم وطلبوا الأخرة ليصبحوا من عباد الله المخلصين المتقين.

«وأبو العنابية من الناحية الفنية يعتبر أول من سنّ وفتح للشعراء الوعظ والترهيد في الدين»¹⁷ كرد فعل لما شاع بين أدباء عصره من التهتك والجون والزندقة وغيرها، إذ كان مقبلاً على الملذات واللهو كغيره من شعراء عصره، ولكن لعدة أسباب مجتمعة اتجه في أواخر حياته إلى الزهد، وحصر شعره فيه. وهنا تتساءل: ما الذي دفعه إلى هذا التحول العظيم وترك ما كان عليه الشعراء والتزم طريقة الزهد والتنسك على المستوى الشخصي؟

قد يرجع أول دافع إلى ذلك إلى حالته النفسية، فقد عرف أن أبا العنابية كان يحس بالضعة والنقص فقد نشأ فقيراً محروماً في أسرة وضعية النسب، فرغم حبه لدنيا وإقباله عليها وكلفه بها، هي لم تطاوعه يرجع نسبه إلى طبقة الأنباط، وهم الطبقة الدنيا في المجتمع وضعته لم تكن قاصرة على نسبه النبطي فحسب بل أيضاً إلى صناعة أبيه في الحجامة، وقد أشار أبو العنابية لهذه المهنة بقوله:

ألا إنما التقوى هو العزُّ والكرم وحبك للدنيا هو الدُّلُّ والعدمُ
وليس على عبدٍ تقي نفيضة إذا صحَّح التقوى وإن حاك أو حجم

(من بحر الطويل)

فهو إذن وضع النسب حقير المهنة، شريف النفس، يتسلح بالزهد كما يتعد عن ظلم الناس، ويفخر بالتقى والزهد وطاعة الله عز وجل ذلك فوق النسب والحسب، ومن أمثلة هذا ردّه على رجل فخر عليه بأبائه فقال:¹⁸

وطاعة تعطي جنان الخلد ونسبٍ يعليك سور المجد
دعني من ذكرٍ أب و جدٍ ما الفخر إلا في التُّقى والزَّهد

وترجع ضعته كذلك إلى حرقته مع إخوته في صناعة الجرار، وحملها في أفاص والمرور بها في الطرقات لبيعها، فقال له: الجزائر، «وقد ظلت هذه الصناعة تطارده حتى عندما أصبح تاجرًا مرموقًا في بلاط خلافة المهدي، حتى إن عتبة التي أحبها ردت له لأنه بائع جزائر متلبس بالشعر».¹⁹

والواضح من الأخبار والروايات أنّ ولعه بعتبة استمر معه عشرين عامًا، وقد أكثر أبو العتاهية من ذكر عتبة في شعره حتى في مدحه للخليفة ظلًا منه أنّ الخليفة سيهبها له وكان الخليفة مفتونًا بها، فلما بلغه إكثار أبي العتاهية في وصفها، غضب فأمر بحبسه وقضى أبو العتاهية فترة من الزمن في غياهب السجن ثم أفرج عنه، خرج أبو العتاهية من السجن يجر أذيال الخيبة العاطفية التي لحقت به، ويعاني صدمة نفسية جديدة أعادت إلى نفسه ذكرى التجربة الأولى التي صدّم فيها كذلك جراء حبه لـ "سعدى النائحة"، وهي من أهل الحيرة كانت ذات حسن وجمال، ومولاة لآل معن، وكان يحبها أيضًا عبد الله بن معن بن زائدة المكنى بأبي الفضل، فنهاه معن عن التعرض لها والاقتراب منها.²⁰

قرر أبو العتاهية بعد هاتين الصدمتين أنّ يبيت قلبه إلى الأبد، وأنّ ينصرف عن متع الدنيا ولذاتها وأنّ يعتزل الناس، ويفرض على نفسه حياة تقوم على الزهد والتقشف ويظهر ذلك في قوله:²¹

قَطَعْتُ مِنْكَ حِبَائِلَ الْأَمَالِ وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطِيِّ رِحَالِي
وَوَجَدْتُ بَزْدَ الْيَأْسِ بَيْنَ جِوَانِحِي وَأَرَحْتُ مِنْ جِلِّي وَمَنْ تَرِحَالِي
(من بحر الكامل)

«ومضى في زهد يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة، إذ فرض على نفسه الحج كل عام، كما فرض عليها اعتزال الناس والميل إلى الوحدة، ومفارقة مجالس اللهو والشعر والغزل، كما كان يفرض على نفسه أحيانًا أنّ يصوم عن الكلام، ومضى يمارس هذه الرياضات الروحية حتى ودع الحياة».²²

ولقد عاش أبو العتاهية حياة كثر فيها القتل والتشريد والطبقية والتقلبات السياسية، فشاهد الكثير من المجازر، فرأى حقارة الدنيا في المجتمع العباسي حيث اشتد الصراع بين الأمويين والعباسيين وبين بني العباس أنفسهم، وشاهد هوان الإنسان مهما كان قدره ومنزلته وروعته ومشاهدة الموت وهاله أكثر سقوط أهل المنعة والكرامة في ساحة الردى. ومما قاله في هذا المضمار نذكر:²³

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذابًا كلّمًا كثرْتُ لديه
تُهِنُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بِصَغْرِ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَغْنَيْتِ عَنْ شَيْءٍ فَدَعَاهُ وَخُذْ مَا أَنْتَ مَحْتَاكِ إِلَيْهِ
(من البحر الطويل)

إنّ المظالم السياسية في المجتمع العباسي دفعت أبا العتاهية إلى عالم المجانة والتخنث، فقد كان في أول أمره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين.²⁴ ليفر من همومه ومعاناته، وانتقامًا من الدنيا التي لم تحفظ كرامته، وهو في الواقع انتقام من المجتمع، بإهدار قيمه التي يفترض فيه دائمًا أنه يتمسك بها ويتطلع إليها، وهذا السلوك من ناحية أخرى يوفر له الأمن السياسي حيث لا يطلبه العسكر ولا تتعقبه الجاسوسية، بل يظل خارج الدائرة لا هو في العير ولا في النفير، وقد سئل عن هذا الموضوع، إذ كيف يضع نفسه مع المخنثين، أجاب بما يفيد أنه ليس منهم ولكنه محتال أو محتاج إلى صحبتهم.²⁵ طلبًا للراحة والهروب من الضياع والظلم فانغمس في حياة اللهو والخلاعة هذه الظاهرة التي عظمت واتسع مداها في أيام العباسيين، وهذا لشيوع بيوت القيان ودور اللهو والتي كانت أكبر مصدر لإشاعة الإغراء والفساد.

« وفي هذا الجو كان يجد الرضا الاجتماعي حيث لا طبقية داخل الحانات والخمارات ودور اللهو والمجانة، فهناك تتساوى الرؤوس حيث يلعب بها سلطان الكؤوس، ولا تبقى إلا حرية الفعل والقول في مجتمع تسوده حرية واقعية وتعمه مساواة الأسلوبية، وتسقط فيه كل الحواجز الاجتماعية حيث يترك الناس عند أبواب الحانات كل القيود والتقاليد والمراسم، وفي هذا الجو يتحقق له الرضا النفسي عن ذاته وحياته، ولذا شاع في أخباره أنه كان مخنثًا مع المخنثين في عصره وبيئته»²⁶. لكنه ما لبث إلا أن ابتعد عن طريق الضلالة واختار لنفسه طريق الاستقامة، مما جعل بعض من مال بهم هواهم إلى المجون يمقتونه ويغتابونه لانصرافه عن حياة المتعة، إذ رفض مذاهبهم ومال عنهم وأخذ عن طريقهم، فزهد في قوله وفعله، «وتاب توبة صادقة، وسلك طريقة حميدة، فزهد في الدنيا، ومال إلى الطريقة المثلى وداخل العلماء والصالحين، ونور الله قلبه فشغله بالفكرة في الموت وما بعده»²⁷

وقد نظم ما استفاده من أهل العلم من السنن وسيرة السلف الصالح، وأشعاره في الزهد والمواعظ والحكم لا مثيل لها، كأنها مأخوذة من الكتاب والسنة وما جرى من الحكم على السنة سلف هذه الأمة. أما الزهد في بلاد الأندلس فقد ظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث، ولكنه راج واتسع في القرنين الرابع والخامس وما بعدهما كرد فعل لعوامل سياسية واجتماعية وثقافية، وكان لنزعة الزهد في المشرق الإسلامي صداها في بلاد الأندلس «وعلى الرغم من كثرة وسائل المتعة في الأندلس، وتطرق أهلها في الانغماس بالمتع والملذات، فإننا نرى تطرفهم في الزهد كذلك»²⁸.

و نتيجة عوامل مختلفة ظهرت نزعة الزهد جلية في بلاد الأندلس، وكان لقوة هذه البواعث أثر كبير في تحديد درجة الصدق في الزهد، فكلما كان هناك أكثر من دافع للزهد انعكس أثره في الحياة الاجتماعية بشكل أقوى وأكثر صدقًا، وهذا لا يعني أن شيوع الزهد في المجتمع يستدعي عدة بواعث لظهوره، فرما يكون دافع واحد كافيًا لإثارة نفسية شخص ما ودفعه إلى النفور من الدنيا والابتعاد عن ملذاتها، والسعي إلى التقرب من الله ابتغاء الثواب والجنة.

والزهد عند الألبيري ظهر نتيجة بواعث ودوافع متعددة تعود في مجملها إلى تعقد الحياة واضطراب المجتمع الأندلسي، فقد «كانت الأحوال السياسية والاجتماعية السيئة في فترة ملوك الطوائف من الأسباب التي عملت على تقوية النزعة الزهدية، ولكن الشعر الأندلسي عرف هذه النزعة قبل هذه الفترة، إذ كان آنذاك ينحى منحى تعليميًا، أو يصدر لأسباب حقيقية من التدين والورع، لقد طبعت الشخصية الأندلسية بطابع القلق والاضطراب وعدم الاستقرار نتيجة لقسوة الحياة، وتنازع الطوائف وشيوع الفتن وكثرة الحروب»²⁹. فكثرة الحروب والفتن وتقلب الأحوال أثرت في نفوس الشعراء فمالوا إلى الطعن بغدر الأيام وغرور الزمن والتقصيف وذكر الله، وما توجيهه من قلق وخوف يجران إلى التشاؤم وذم الدهر والتفكير بالمصير والخالق.³⁰

إنّ تقلب الأحداث في العصر الأندلسي كان له الأثر البالغ في انتشار شعر الزهد، فقد شهدت الأندلس في القرن الخامس الهجري أحداثًا مهمة أثرت في مجرى تاريخ الأندلس كله وأبرز تلك الأحداث سقوط الخلافة المروانية في الأندلس، وكان ذلك مع انقضاء الربع الأول من القرن الخامس الهجري، انقضت الخلافة المروانية لتبدأ رسميًا مدة ملوك الطوائف، ويلاحظ في هذه الفترة وجهان للأندلس، أحدهما قائم ومضطرب، وهو يخص انقسام البلاد وتجزؤها، والوجه الثاني مشرق وضاء، وهو يخص الجوانب الثقافية والحضارية فقد كانت الأندلس في هذه المدة مركز إشعاع فكري وحضاري، وكان المجتمع الأندلسي في هذه المدة مجتمعًا مترف، حيث انفتحت أمام الأندلسيين أبواب المشرق والمغرب»³¹.

ولقد كان ملوك الطوائف مع ضعف سلطاتهم ونظام حكمهم يتنافسون في اجتذاب الشعراء إلى بلاطهم وشراء مدائحهم الطنانة، الجارية على الأسلوب القديم بالجوائز الثمينة.³²

وفي القرن الخامس الهجري ظهر عدد من الشعراء اشتبهوا بالزهد، وجعلوا شعرهم وسيلة لبث آرائهم ولنقد المجتمع، وسخروه لبعض القضايا السياسية والاجتماعية، ومن هؤلاء الألبيري الذي سكن مدينة ألبيرة فنسب إليها والتي كانت -قبل خرابها- من أعظم مدن الأندلس.³³

انتقل مع أهل ألبيرة إلى غرناطة التي أخذت تشق طريقها إلى الوجود شيئاً فشيئاً، فقد أصبحت العاصمة الجديدة بعد أن تحولت ألبيرة إلى أطلال بعد أن تعرضت للهدم والتخريب.

كان أبو إسحاق الألبيري من أهل العلم والعمل معروف بالصلاح، فقيهاً متشدداً، دفع أهل غرناطة إلى الثورة ضد اليهود بنونيته المشهورة، اهتم بأحوال بلده وأمهته³⁴

فلقد اهتم بأحوال بلده وأمهته، وكان له رأي في ظروفها السياسية والاجتماعية، فغلب على شعره الزهد والتأمل في أحوال الناس والنصح لهم بما يراه طريق الصلاح والنجاح، يجارب الفساد وشيوع المذات والشهوات في أمته وكذا الخلافات والصراعات الحادة بين أبناء جلدته حول الأمور الدنيوية.

لقد شاعت في المجتمع الأندلسي حياة اللهو والمجون والخلاعة والابتعاد عن الدين، فنزع الناس في عصر ملوك الطوائف خاصة على الترف والرفاهية، وأخذ «يفتر الوازع الديني في النفوس، ويتجرأ بعض الشعراء، فيقولون الشعر في الهزل والمجون، ويتخذون منه مادة سمرهم في مجالس الشراب والأدب والغناء»³⁵

وإزاء هذا الاتجاه نحو متع الحياة كان هناك التطلع للحجاب الروحي، إذ أنّ تيار المجون واللهو في المجتمع الأندلسي قابله في قوة اندفاعه تيار الزهد، الذي يعد مدين في نشأته ووجوده لتيار المجون. فهو رد فعل طبيعي إزاء تلك الموجة العاتية من التحرر والانطلاق التي أشاعت في المجتمع الأندلسي ألوأناً من العبث والإسراف في الإقبال على الدنيا والانغماس في المذات والشهوات.

كما أنّ تركيبة المجتمع الأندلسي كان لها أثرها الواضح في ظهور الزهد وانتشاره فيه، فلقد تألف من عناصر متعددة من السكان مختلفة الأجناس والملل والأهواء التي كانت تضطرب بها الحياة الاجتماعية وتزداد على مدى الأيام سوءاً.

«لقد انتشرت الطبقة في الأندلس في عصر ملوك الطوائف فكان المجتمع الأندلسي يمجج بألوان من المتناقضات، فهذا ناعم مترف، أو لله مستهتر، وذاك ناسك عابد، أو ورع زاهد، فطبقة الأمراء والوزراء والشعراء والكتاب وبقية وجوه الدولة تتمتع بالثراء، وتسرف في المجون وتحيا في المتاع، وطبقة العامة من الفلاحين وأصحاب المهن المتواضعة تعيش للبؤس، وتحيا للحرمان لتتعم الطبقة الأولى بمجون الغنى وهو الثراء»³⁶

فلقد تألف المجتمع الأندلسي من أصناف متعددة من الأقسام، إذ يمكن القول بأنّ العناصر التي سادته خمسة هم العرب، والبربر، والموالي، والمولدون وأهل الذمة من نصارى ويهود.

فقد كان المسلمون من العرب والبربر يأتون في الدرجة الثانية من سكان إسبانياً الأصليين والعرب كانوا يحسون إحساساً قوياً بنوع من الأرستقراطية نابع من غلبتهم على الإسبان والبربر إذ أدخلوهم في الإسلام، وتفوقت لغتهم على لغات غيرهم ولعل شعور التعالي هذا من قبل العرب، هو ما كان يولد ثورة البربر عليهم أحياناً أمّا بالنسبة للبربر فقد كانوا يشاركون العرب في البداوة والإسلام والشجاعة والعصبية القبلية، وكانوا في أول أمرهم أكثر عدداً وقوة من العرب، تأثروا بالبيئة الجديدة تأثراً عظيماً وكانوا أسرع اندماجاً من العرب فيها الذي حال بينهم وبين الاندماج السريع الكامل لغتهم واعتزازهم بعصبيتهم

العربية، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج، فقد انفتحو على جميع الثقافات، تعلموا العربية، وأقبلوا على دراسة الإسلام والتفقه فيه، كما أنهم ارتبطوا مع جميع الأجناس بروابط المصاهرة مع أهل هذه البلاد، وصاروا أندلسيين أكثر من العرب. أما الموالي فقد كانوا يحتلون مراكز مرموقة في بلاد الأندلس على خلاف ما كانوا في المشرق، والمقصود بهم مولى بني أمية.

أما عنصر المولدين فهم العنصر الناشئ من تزواج العرب بالبربر أو العرب بالإسبانيات والصقالية، فخرج جيل جديد مولد يشبه ما كان في الشرق من تزواج بين عربي وفارسية، يضاف إلى هذه الأجناس أهل الذمة من الإسبانيين الذين بقوا على مسيحياتهم ولم يدخلوا الإسلام، هؤلاء كانوا يرون أنّ البربر العرب دخلاء عليهم وأنهم أحق بملك بلادهم ويندرج مع هذا العنصر الإسباني المسيحي أيضاً يهود البلاد.

من هذه التركيبة المعقدة تكون المجتمع الأندلسي، حيث كان لها آثار سلبية عليه، حيث ظهر في ظلها التعصب والتحيز والتفاوت الطبقي في المجتمع خاصة في عصر ملوك الطوائف فكان هناك سادة يتمتعون بثراء كبير وينفقون على سعة وبذخ وإسراف، ويملكون القصور وبجوار هؤلاء السادة والملوك آخرون عاشوا حياة ملؤها البؤس والشقاء والحرمان، يكدحون فيها من أجل تحصيل قوت يومهم.

إذن أصبح المجتمع الأندلسي في هذه الفترة يمجج بكثير من المتناقضات فهذا ناعم مترف، أو لاه مستهتر، وذلك ناسك عابد أو ورع زاهد وهذا كله دفع الكثير من العلماء والفقهاء والشعراء حتى الأمراء والملوك نحو الزهد في الدنيا ودم الاختلاط والعصبية والعنصرية واللهو والجون، وكان إثارهم للأخرة وبيعهم للدنيا السبيل للنجاة.

أبو إسحاق الألبيري تدل قصائده على أنّ زهده كان إيجابياً، يدل على مدى مشاركته في الحياة الاجتماعية، فقد كان شعره صدى لما يتردد في نفوس الشعب الأندلسي من آلام وآمال وما يعانونه في حياتهم المضطربة ومجتمعهم المعقد. ولقد رزق الألبيري حظاً من الحب والاحترام في حياة الناس، فلقد كانت قصائده لمن يقرؤها أو يسمعها عالم روحي، تجعله في حالة انجذاب صوفي نحو الله عز وجل.

«لقد كان لسلطة الفقهاء تأثير في دفع الناس إلى التعصب الديني والتظاهر بالعبادة، والعزوف عن الدنيا ومباهجها، حتى كثر المتزهدون، وأصبحت صناعة الزهد شيئاً مرغوباً، فكان الشعراء يطبقونه بدافع ديني أحياناً، وبدافع تقليدي أحياناً أخرى، على أن من الشعراء من نظمهم وشعرهم حفاً بندمه وأدرك غرور الدنيا، فأخذ يذكر ذنوبه طالباً مرضاة الله وعفوه».³⁷

فأكثر ما ساعد على انتشار الزهد في الشعر الأندلسي صوت الفقهاء، ونمو شخصياتهم فكانت لهم الكلمة المسموعة والأمر المطاع، فتحملوا عبء إصلاح المجتمع، وبعض هؤلاء الفقهاء شعراء يجيدون القريض، ويتخذونه لسان دعوتهم، فأصبح الزهد اتجاهًا برز في شعر هؤلاء الفقهاء الذين كان لهم بالأندلس صوت مسموع، أمثال الألبيري الذي اشتهر بالتقوى والصلاح.

كان أبو إسحاق الألبيري يعمل كاتب للقاضي، ويقوم في الوقت ذاته بتدريس مؤلفات شيخه محمد بن أبي زمنين الذي كان من كبار المحدثين والعلماء الراسخين وأجل وقته في العلم والرواية والحفظ للرأي والتمييز للحديث والمعرفة باختلاف العلماء، متفننا في العلم مضطلعاً بالأدب، قارضاً للشعر، متصرفاً في حفظ المعاني والأخبار مع الشك والزهد والأخذ بسنن الصالحين والتخلق بأخلاقهم.³⁸

وهذا ما ساهم إيجابياً في تكوين شخصية الألبيري وميله إلى حياة الزهد وتشبعه بروح الإيمان، فانعكس ذلك في قصائده، فالقارئ لزهدياته يحس بحرارة عاطفته وصدق انفعاله وشدة تقواه، فهي تهدف أساساً إلى الزهد في الحياة والتطلع إلى الأخرة.

كما أنّ كبر السن والشيخوخة كان لهما أثر بالغ في زهد الألبيري، وهذا ما يمكن أنّ نطلق عليه زهد الشيخوخة، إذ نجد بعض الناس يتجه إلى الزهد حين يكون الموت منهم قاب قوسين أو أدنى، أو حين يرافقهم مرض عضال، أيّ أنّ هذا يصدر عن الخوف من الموت ويجرّك إليه أيضًا الشيب والضعف وفراق الأحبة وموتهم، «فهذا الشعور هو الذي يدفع إلى التقوى والإقلاع عن الذنوب والتوبة إلى الله وتذكر الآخرة وهو أمر طبيعي يستوي فيه الأندلسي وغير الأندلسي».³⁹

إنّ شعر أبي إسحاق الألبيري شعر شيخوخة، فقد عبر في مواضع عدة من شعره بأنه أكمل الستين، فبكى على زوال الشباب وتأسف على الشيخوخة، وعبر عن حزنه واتعاضه وهو يرى أنداده يرحلون واحدًا وراء آخر كقوله:⁴⁰

تمرُّ لدائي واحدًا بعد واحدٍ وأعلم أنّي بعدهم غير خالد
وأحمل موتاهم وأشهد دفنهم كأني بعيد منهم غير شاهد
فها أنا في علمي بهم وجهالتي كمستيقظ يرنو بمقلة راقِد

(من البحر الطويل)

كما لا يمكن أنّ ننكر تأثير الزهد في بلاد الأندلس بالزهد في بلاد المشرق، فعندما فتح العرب المسلمون إسبانيا سنة 92هـ، وجدوا الكنيسة موجهة للثقافة، فاحتكر رجال الدين العلم والتعليم، واتجهوا به نحو الدين، وجاء الفتح العربي فورث هذه المعارف، وانطلق إلى آفاق رحبة من العلوم والفنون والأخلاق، و «انتشرت الحضارة العربية في الأندلس بانتشار العرب فيها، وبكثرة المساجد، وأصبحت الأندلس كمحطات الإذاعة، فيها آلات للاستقبال، وآلات للإرسال، استقبلت كل ما أرادت من المشرق، وأرسلت إلى عالم الإسلامي كله، نوعين من الموجات، نوعًا ذهب إلى المشرق ونوعًا ذهب إلى أوروبا».⁴¹

لقد نشأ الشعر العربي في الأندلس شرقياً، جاء مع العرب الفاتحين لها أو النازحين إليها كما أنّ العلماء والأدباء من أهل الأندلس كانوا يرحلون إلى المشرق فيلقون الأئمة ويأخذون عنهم، ثم ينقلون إلى الأندلس برواية ما أخذوه فيثونه في أهلها من دين ولغة وأدب وحضارة فهم لا ينفكون ملتفين حول المشرق في جميع مجالات حياتهم. فيسيرون على ضيائه ويستمدون من زعمائه وعلمائه، ويحذون في سياستهم وإداراتهم حذو العباسيين فالفكر الأندلسي في مجمله مرتبط بأخيه المشرقي، و «لذلك لا يمكن دراسة نشاط الزهد والتصوف في الأندلس بمعزل عن تيارات الزهد والتصوف المشرقية».⁴²

وعلى الرغم من تلون شعر بلاد الأندلس بالصبغة المشرقية، إلاّ أنّه بقي وفيًا لبيئته الأندلسية، منها تكوّن و بها تعلق، وعليها دار وكان للأندلسيين شخصية واضحة لم تطمسها هذه المشابهة المشرقية ومن الشعراء الذين تأثروا بشعراء المشرق الشاعر أبو إسحاق الألبيري الذي وصل بشعره الزهدي إلى القمة في الأدب العربي، بما أضفى عليه من حرارة الوجد والانفعال والإقرار بالضعف الإنساني أمام مغريات الحياة، ومكافحة ميول الإنسان إلى ملذاتها وشهواتها.

قائمة المصادر و المراجع :

- (1) ينظر: الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح، أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين (بيروت)، 1978م، ط4، ج2، مادة (زهد).
- (2) ينظر: لسان العرب ابن منظور ، دار المعارف (مصر)، ط3، تا، ج4، مادة (زهد).
- (3) سورة يوسف، الآية 20
- (4) سنن الترمذي، تح: إبراهيم عطوة عوض، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، ط1، دتا، ص 517.
- (5) سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة)، د ط، د تا، ص 682.
- (6) الزهد والمتصوفة، محمد بركات البيلي، دار النهضة العربية، د.ط 1993م، ص 7.
- (7) التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، تح، محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، ط1، 2003م، ص 184.
- (8) الزهد الكبير، أحمد بن حسن البيهقي، دار القلم، ط2، 1983م، ص 86.
- (9) الزهد الكبير، أحمد بن حسن البيهقي، ص 96.
- (10) ينظر: مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الحديث (القاهرة)، ج2، د ط، 1993م، ص 266.
- (11) مجموع فتاوي ابن تيمية، تح: عبد الرحمن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف (الرباط)، ج11، د ط، د تا، ص28.
- (12) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية (بيروت)، ط2، 1976م، ص 216.
- (13) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: عبد الكريم الغراوي وعبد العزيز مطر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر (بيروت)، د ط، د تا، ج3، ص 121.
- (14) أروع ما قيل في الزهد، إميل ناصيف، دار الجليل (بيروت)، د ط، د تا، ص 11.
- (15) تاريخ الشعر في العصر العباسي، يوسف خليف، دار الثقافة للطباعة والنشر (القاهرة) د ط، 1981م، ص 35.
- (16) ينظر: المرجع السابق، ص 85.
- (17) جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط27، 1978م، ص 447.
- (18) أبو العتاهية: أشعاره و أخباره، تح: شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، دط، 1384هـ- 1965م، ص 102.
- (19) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ج3، ص 128.
- (20) ينظر: المرجع السابق، ج3 ص 136-137.
- (21) أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص 280-281.
- (22) تاريخ الشعر في العصر العباسي، يوسف خليف، ص 88.
- (23) أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص 410-411.
- (24) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ج4، ص 4.
- (25) ينظر: الأغاني، أبو فرج الأصفهاني ج3، ص 209.
- (26) المرجع نفسه، ج 4، ص 8-9.
- (27) أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص 37.

- (28) الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه)، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1975م، ط2، ص56
- (29) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف)، سعد إسماعيل شليبي، دار النهضة (مصر، القاهرة) د ط، د تا، ص 57.
- (30) ينظر: في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، دار المعارف (مصر)، ط 3، د تا، ص 118.
- (31) سعد أسماويل الشليبي، المرجع السابق، ص 06.
- (23) ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، تر: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين (بيروت)، ط 10، 1984م، ص 308.
- (33) ينظر: المختار من الشعر الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر (لبنان، بيروت)، ط3، 1992م، ص 69.
- (34) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع (عمان)، ط1، 1998م، ص 135.
- (35) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، د ط، 1976م، دار النهضة (بيروت) ص 258.
- (36) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف)، سعد أسماويل شليبي، ص 53.
- (37) في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، ص 118.
- (38) ينظر: ديوان الألبيري، ص 121-122.
- (39) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص 504.
- (40) ديوان أبي إسحاق الألبيري الأندلسي، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر (بيروت، لبنان)، دار الفكر (دمشق، سوريا)، دط، د تا، ص 118.
- (41) ضحى الإسلام، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3، 1953م، ص 303-304.
- (42) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، منجد مصطفى بهجت، ص60.